الفصل الرابع عشر

معاهدة كوتاهية

لما منح محمد على إبراهيم السلطة التامة لوضع شروط الصلح ، كان يعلم حق العلم آراء ولده التى شرحها شرحا وافيا فى خطابه المؤرخ ٣ فبراير سنة ١٨٣٣ ، والذى يقول فيه :

« لاشك فى أن الغرض الذى ترمى إليه بعثة الجنرال موراڤيف وخليل باشا ، هو تحديد شروط الصلح ؛ ولما كان مصير مصر ومستقبلها معلقين على الموقف الذى تقفونه من هذه البعثة ، فإنى أرى من الواجب علىّ لنفسى ، ولما أدين به من عواطف الولاء والإخلاص لذاتكم الجليلة ، أن أعرض بكل خضوع آرائى فى الموقف الحالى ؛ وإن كنت أعلم حق العلم أنكم قد أوتيتم من الحكمة ما يجعلكم فى غنى عن آراء غيركم من الناس » .

وبعد أن أدى بهذه المقدمة واجبه نحو والده قال :

« والآن يلوح لى أن أول الموضوعات التى يجب أن تطرح على بساط البحث وتسوى بينكم وبين المتفاوضين ، موضوع الاستقلال . ذلك بأن الاستقلال هو المسألة التى لا تعادلها فى نظرنا مسألة أخرى . ويجب علينا بعد ذلك أن نطالب بالمناطق الثلاث أضاليا وعلائية وكليكيا [1] وجزيرة قبرص ، وعلينا أيضاً أن نضم إلى مصر بلاد تونس وطرابلس إذا استطعنا » .

(١) تقع هذه المناطق الثلاث فى جنوب بلاد الأناضول وتطل على البحر الأبيض المتوسط فكليكيا جهة الشرق مجاورة لسوريا وتليها علائية إلى الغرب وبها مدينة صغيرة بهذا الاسم =

وبعد أن ذكر مطالبه شرع يؤيدها فقال :

« هـذا هو الحد الأدنى لمطالبنا ، ويجب أن لا نتزل عن شيء منها لأن مصالحنا تتطلب الاستمساك بها ؛ فأما استقلالنا فيجب أن نصر عليه ولا نتحول عنه قيد شعرة ، وعلينا أن نقوى مركزنا ونفكر فى المستقبل . . .

« وأما أضاليا وعلائية وكليكيا فيجب التمسك بها لأننا فى حاجة إلى غاباتها ، لنتخذ منها الأخشاب اللازمة لبحريتنا . وقد عرفتم أننا لما منعت إنجلترا تصدير الخشب لجأنا إلى النمسا فلم يفدنا ذلك شيئاً ، إذ رفض طلبنا ووقع هذا الرفض من نفوسنا وقعاً مؤلماً لا يمحى أثره أبد الدهر . وهل يشك أحد فى أن مصر فى أشد الحاجة إلى قدر وافر من الخشب ؟ وأما قبرص فلا بد لنا منها لنجعلها قاعدة بحرية لأسطولنا ، ولنمنع بها الباب العالى من الوصول إلى شواطئنا .

« فهل تسمحون لى بأن أتقدم إليكم بكل إجلال فألفت أنظاركم الكريمة إلى هذه المسائل ؟ »[1] .

هذا خطاب لا يمليه إلا خيال رجل سياسى ، وهو دليل على أن محمداً عليًّا كما قلنا من قبل كان يعرف بالضبط ما يفعل حين أناب عنه إبراهيم فى المفاوضة . وقد شعرت وزارة الخارجية الفرنسية بمعنى هذه الإنابة كما شعرت بها لندن . ولربما كان روسن قد تخيل فى السفير البريطانى « شعورا يشبه الخول » لما ذاع

= واقعة على رأس بارز فى البحر . وتلى هذه منطقة أضاليا وبها مدينة بهذا الاسم واقعة على منحدرات تل يشرف على خليج أضاليا ؛ وبيوتها وشوارعها يعلو بعضها بعضاً على سفح التل على شكل دوائر تشبه المدرج . وتقع جزيرة قبرص فى البحر تجاه هذه المناطق الثلاث وقد سماها المؤلف أناضوليا ولا شك فى أن أضاليا هى المقصودة بالذات لأن لفظ أناضوليا أو الأناضول يطلق على جميع آسيا الصغرى وليس ذلك بالطبع هو ما كان يقصده إبراهيم . (المعرب)

(١) المخطوطات الملكية المصرية بسراى عابدين بالقاهرة القسم التركى .

خبر قدوم الأسطول الروسى إلى البسفور ؛ ولكن الحكومة البريطانية لا تدع للحيرة والارتباك سبيلاً إلى نفسها . ولربما كانت صورة الإدارة الدبلوماسية فى إنجلترا هى التى كانت ماثلة فى عقل پوپ Pope[1] حين قال : إن ما يظنه الناس أغلاطاً هو فى الواقع خطط مدبرة ؛ فليس هومر بغافل ولكننا نحن الواهمون .

وتبعاً لهذه القاعدة أصدرت الأوامر إلى قائد الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض المتوسط بأن يتصل بالقنصل البريطانى العام فى الإسكندرية ، وأن يستعد لإنزال قوة من البحارة إلى البر إذا تطلبت ذلك المصالح البريطانية[2] . ورأت وزارة الخارجية الفرنسية أن من الحكمة أن لا تجعل لأمير البحر روسن الإشراف على العلاقات الدبلوماسية ، لأن هذه العلاقات لا يصلح للإشراف عليها بحار فظ ، بل تحتاج إلى ظرف الرجل الفاتن الخلاب . ولذلك شعر ده بروجلى بحاجته إلى القيام بعمل حاسم ؛ ولكنه مع ذلك لم يكن يرغب فى إبعاد روسن لئلا تسىء الروسيا والباب العالى فهم هذا العمل ، وقد يسىء فهمه أيضاً محمد على . فهداه تفكيره إلى أن يرسل من قبله مندوباً خاصا إلى بلاد الشرق الأدنى . وتطلب اختيار هذا المندوب غير قليل من التفكير والأناة ؛ لأن وزير الخارجية الفرنسية كان فى حاجة إلى رجل ناضج الفكر ، سريع البت ، كيساً لبقاً فى جميع الأحوال ؛ وكان لابد مع ذلك أن يقع الاختيار على شاب لا يبدو لصغر سنه كأنه سفير ، ولكن له من العقل ما يمكنه من إصلاح الخطأ الذى ارتكبه بحار فى لباس سفير .

---

(١) الكسندر پوپ شاعر إنجليزى شهير عاش فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ومن أعماله أنه ترجم الياذة هوميروس إلى اللغة الإنجليزية . (المعرب)

(٢) صورة سجلات الوثائق الدبلوماسية الخاصة بشؤون مصر فى سنة ١٨٣٣ محفوظة فى دار الكتب المصرية بالقاهرة وثيقة رقم ٣٩ .

وقد رأى شارل جوزف إدمند Charles Joseph Edmond بارون ده بوالكونت Baron de Boislécomte موضعاً لثقته ، فاختاره لهذا المنصب . ولد البارون فى سنة ١٧٩٦ وعرف دخائل الدوائر الدبلوماسية وأسرارها فى مؤتمر ويانه Vienna ، وكان تلران Talleryrand هو الأشبين الروحى لهذا الشاب . وقد أرسله ده برجلى إلى الآستانة والإسكندرية مزوداً بتعليمات مؤرخة ٨ إبريل سنة ١٨٣٣ [١] . وهى جديرة بأن يطلع عليها القراء ، لكننا لا نريد أن نحلل محتوياتها ، لأن روسن جعل السفارة الفرنسية فى ذلك الوقت قبلة الأنظار وموضع الاهتمام . وقد سبق القول إن الباب العالى أبلغه أن الأوامر صدرت إلى الأسطول الروسى بمغادرة المياه التركية ، وأنه ينتظر اعتدال الريح لينفذ تلك الأوامر . ولكنه عاد فأبلغه فى ٢٣ مارس سنة ١٨٣٣ أنه « لا يستطيع أن يرفض تدخل الروس فى الأمر ، ويخرج أسطولهم من المياه التركية ، إلا بعد أن يتأكد أن إبراهيم سينسحب من الأراضى التى لم يتخل له عنها الأتراك »[٢] . ولما رأى روسن هذا التحول من جانب الأتراك ، سعى ليقنعهم بأن فى مقدور إبراهيم أن يدمر الأسطول الروسى تدميراً ؛ وقال لهم إنهم لا يستطيعون أن يقاوموا الجيش المصرى بأقل من أربعين ألف مقاتل ، وإن الروسيين لن يصلوا إليهم إلا بعد أربعين أو خمسة وأربعين يوما[٣] :

وأعجب السلطان ومستشاروه بهذا المنطق ، لأنهم تبينوا فيه الصدق ؛ فلما اقتنع الباب العالى بما فيه من قوة ، ولى وجهه مرة أخرى نحو فرنسا ورجا السفير

(١) بوالكنت تأليف دون ص ٣٩ من المقدمة .
(٢) المصدر عينه ص ٤٦ من المقدمة .
(٣) المصدر عينه ص ٤٩ من المقدمة .

أن يخبره بما يجب عليه أن يتخلى عنه لمحمد على ؛ فعل ذلك فى ٢٩ مارس سنة ١٨٣٣ قبل أن يتلقى بوالكنت تعليماته النهائية .

واعتقد السفير الفرنسى أنه إذا بادر إلى العمل من ساعته ، استطاع أن يقرر مصير الدولة العثمانية قبل وصول المندوب الخاص . وكان يعهد فى ده ثرن القدرة وأصالة الرأى والإخلاص والوطنية والصبر وسعة الحيلة ، ولذلك أقنع الريس أفندى بأن يدون له شروط الصلح . ولما كتبها وقرر فيها أن السلطان يرضى بأن يتخلى عن جميع بلاد الشام لمحمد على ، بعث ده ثرن مسرعا إلى معسكر إبراهيم فى ٣٠ مارس سنة ١٨٣٣ ، وزوده بتعليمات شفهية أوصاه فيها أن يعرف أقل ما يرضى به القائد المصرى ، إذا كانت الشروط المعروضة عليه لا ترضيه ، وكانت أوامر أبيه تحتم عليه أن لا يكتفى بها (١) .

وبعد خمسة أيام من سفر ده ثرن وصل قسم آخر من الأسطول الروسى إلى مياه القرن الذهبى ؛ فتعقدت الأمور بسبب مجيئه فوق تعقدها الأول . وبينا كان روسن يظن أنه استطاع أن يجد مخرجاً من هذه الورطة الجديدة ، إذا بده ثرن يعود من مركز القيادة المصرية ليبلغه أن إبراهيم مستعد للنزول عن بعض مطالبه ، لكنه لا يرضى بالتخلى عن أطنه . وكتب روسن إلى وزيره وأمامه مذكرة ده ثرن يقول : « وعلى ذلك فقد تخلى الباب العالى عن بلاد الشام ، ولكنه لا يستطيع أن يسلم فى أطنه ، لأن الباشا إذا استولى عليها استحوذ على ثروة غابات كرمانيا ، وسيطر على ممرات جبال طوروس ، وعلى الطريق المؤدى إلى الآستانة . ولكن إبراهيم مع إصراره على امتلاك أطنه ، بدأ يسحب قواته ،

(١) المصدر عينه ص ٥٠ من المقدمة .

ولذلك أشرت الآن على السلطان أن يصدر فرماناً يؤكد فيه نزوله عن هذه الأراضى التى تخلى عنها لإبراهيم[١] . »

ولا شك فى أن السفير الفرنسى شعر بأن ده ثرن مساعده القدير الصبور قد حل المسألة كلها قبل وصول بوالكنت . ولربما كان ده ثرن محقا فى ظنه أن العقدة قد حلت قبل أن يبدأ المندوب الجديد عمله ؛ ولكن الفضل فى هذا الحل لم يكن راجعاً لده ثرن وقوة حجته ، بل إلى الأوامر التى أصدرها محمد على ، وهى أوامر أوحى بها احترامه لقوة الأسطول البريطانى الفعالة ، لا اقتناعه بمنطق الدبلوماسى .

وذلك أن وزارة الخارجية — كما قلنا من قبل — قررت أن يكون أسطول البحر الأبيض المتوسط رهن إشارة القنصل البريطانى العام بالإسكندرية . ولسنا نعلم علم اليقين متى حبا الملك الكولونل كامبل Colonel Campbell بهذه الثقة ، ولكننا نعرف عن ثقة أن القنصلية البريطانية العامة قدمت فى اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٨٣٣ إلى ناظر الخارجية المصرية بوغوص يوسفيان[٢] بك مذكرة شفوية جاء فيها ما يأتى :

« إن الحالة السائدة فى شرق البحر الأبيض المتوسط تحتم على الحكومة أن تعزز الأسطول البريطانى فى هذا البحر ، وأن تأمره بالمجيء إلى ميناء الإسكندرية ،

(١) المصدر عينه ص ٥٥ من المقدمة .

(٢) بوغوص بك يوسفيان (١٧٦٨ — ١٨٤٤) مدير الأمور التجارية والشؤون الخارجية فى أيام محمد على باشا . ولد فى أزمير وأحسن والده تعليمه ، فتعلم عدة لغات هى الأرمنية والتركية واليونانية والإيطالية والفرنسية . وكان يتقن اللغة الأخيرة حديثاً وكتابة . ولما نظم محمد على شؤون الحكومة على النمط الحديث ، وثق به كل الثقة وعهد إليه بالإشراف على أعماله التجارية والشؤون الخارجية ، فظل يشرف عليهما نحو عشرين عاماً حتى توفى فى عام ١٨٤٤ فى الثانية والسبعين من عمره . ويكتب اسمه أحياناً (باغوص) بالألف ولكن علمنا أن خاتمه قد نقش عليه اسمه بالواو . وقد سماه المؤلف بوغوص يوصروف ، ولكن حقيقة اسمه هو بوغوص يوسفيان . (المعرب)

ليرقب سير المفاوضات المنتظرة بين سمو الباشا ومندوب الباب العالى .

« فإذا وجد قائد الأسطول عند قدومه إلى الإسكندرية أن الطرفين قد وصلا إلى اتفاق نهائى ، وأن وجود الأسطول البريطانى أصبح لا ضرورة له ، فسوف يتبع الأوامر التى لديه . أما إذا عرف أن المفاوضات لم تبدأ بعد ، فإنه سيقدم للكولونل كامبل ما يستطيع تقديمه إليه من المعونة . وقد وصلت إلى يد الكولونل كامبل التعليمات التى صدرت إليه فى هذا الموضوع .

« وإنا لنرجو أن يكون ما لبريطانيا العظمى وحلفائها من النفوذ الأدبى ، وما يعرفه الباشا من أن الدول الكبرى لا تسمح بتجزئة الدولة العثمانية ، نرجو أن يكون ذلك كافياً لإقناع محمد على بقبول ما يعرض عليه من الشروط المعقولة . أما إذا لم تصل المفاوضات إلى نتيجة نهائية ، فإن أمير الأسطول قد أذن له أن يمنع كل اتصال بالبر أو بالبحر بين مصر وجيش إبراهيم ، حتى يصل الطرفان إلى اتفاق يرتضيانه ، كما أنه سيمنع أيضاً البوارج الحربية المصرية ، وكل السفن التى تحمل الراية المصرية ، من مغادرة الإسكندرية ، إذا كان على ظهرها جنود أو ذخائر حربية »[1] .

وفى اليوم السابع من مايو سنة ١٨٣٣ أجابه بوغوص بك يوسفيان بما يأتى :

« قد اطلع سمو مولاى الوالى على ترجمة تعليماتكم وعرف المقصود منها . ولما كانت هذه الأوامر تتعلق بفصل من تاريخ مصر قد انتهى الآن ، فليس ثمة ما يدعو إلى النظر فيها . ذلك بأن الباب العالى قد منحه باشوية الشام وملحقاتها ، وقد تلقى الفرمانات التى تؤيد ذلك »[2] .

(١) صور سجلات الوثائق الدبلوماسية الخاصة بشؤون مصر فى عام ١٨٣٣ المحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة الوثيقة رقم ٣٩ .

(٢) المصدر عينه وثيقة رقم ٤١ .

وليس فى استطاعتنا أن نعرف السبب الذى دعا القنصل البريطانى العام إلى البحث مع ناظر خارجية محمد على فى ٥ مايو فى هـذا الموضوع . ولسنا نشك فى صحة التاريخ الذى ذكرناه هنا ، لأن الذى أمامنا الآن ونحن نكتب هذه السطور هو النص الأصلى لهذه المذكرة الشفوية ، لا صورة مطبوعة منها . على أننا نعلم أن بوالكنت قدم إلى الإسكندرية فى ٢٩ أبريل سنة ١٨٣٣ ، وقت أن كانت المدافع تطلق معلنة نبأ التصديق على شروط الصلح[١] . ويقول صبرى وهو من الثقاة الذين لا يخطئون فى ذكر الحقائق التاريخية ، أن الآستانة لم توافق على شروط الصلح بصفة رسمية قبل اليوم الرابع من شهر مايو سنة ١٨٣٣ ، وأما الكونت ثون بروكش أستن Prokesch-Osten ، الذى أرسله مترنيخ ليضغط على محمد على ، فقد وصل إلى الإسكندرية فى ٣ أبريل من تلك السنة[٢] .

وأكبر ظننا أن المستر كامبل القنصل البريطانى العام أنبأ الباشا بمعنى الأوامر الصادرة إليه بطريقة غير رسمية ، وأن مجئ المندوب النمساوى حمله على تقديم المذكرة الرسمية فيما بعد . ولما كان دوى المدافع لا أهمية له فى نظر الموظف الدبلوماسى ، فقد أبى أن يعترف بأن الحرب قد خمدت نارها ، إلا إذا ثبت له ذلك بالدليل الكتابى . ولما كان يعرف أن الضغط البريطانى هو الذى ألان عريكة محمد على ، فقد أجمع أن لا يمكن النمساويين من أن يستثمروا شروط الصلح لمآربهم السياسية . هذا هو ما نفسر به ذلك اللبس فى التاريخ ، وللقارئ أن يقبله إذا شاء أو يرفضه . ومهما يكن ذلك فإن أمرا واحد لا يمكن الشك فيه ، ذلك أن الذى ألان شكيمة محمد على لم يكن منطق ده ثرن وقوة حجته ؛

(١) بوالكنت تأليف دون ص ٥٠ من المقدمة .

(٢) « محمد على والى مصر من مذكراتى اليومية » للكونت ثون بروكش أستن طبع فى وينة سنة ١٨٧٧ ص ٣٩ .

ودليلنا على هـذا أن رسول روسن لم يغادر الآستانة إلى مقر القيادة المصرية إلا فى ٣٠ إبريل سـنة ١٨٣٣ ، وأن دوى المدافع يرجع تاريخه إلى اليوم التاسع والعشرين من ذلك الشهر[١] .

و بينما كان الرجال الدبلوماسيون فى الشرق الأدنى يتفننون فى تدبير الحيل ، و يسعى كل منهم ليكون هو الظافر بنشر لواء السلام ، فإن المعاهدة التى أثمرتها جهودهم لم يرض عنها أحد . فأما السلطان فلأن والياً صخابا من ولاته قد أذاقه ذل الهزيمة . وأما محمد على فلأنه لم ينل الاستقلال (الذى كان يطمح إليه إبراهيم) ولم يعترف بحق جعل باشوية مصر وراثية فى عقبه ، ولم يصبح صاحب الأمر والنهى فى الآستانة . وغضبت الروسـيا لأن القيصر لم يقو مركزه لدى الباب العالى . وساء الدول الغربية أن بطرسبرج أصبحت صاحبة الكلمة الراجحة فى شؤون الدولة العثمانية . ولـكن معاهدة كوتاهية كانت فى حقيقتها نصرا أدبيا لمحمد على رغم كل ما فيهـا من العيوب . وقد لخص صبرى ما تنطوى عليه من المعانى بقوله :

« يرجع معظم الفضل فيما اشتملت عليه معاهدة كوتاهية من المزايا إلى خطة إبراهيم ، الذى جعل مصير الآستانة معلقاً فى كفة الميزان ، والذى أطار قلب السلطان وأذله لتابعه . ولـكن هذا الصلح لم يكن هو الصلح الخليق بهذا النصر المبين ، بل كان صلحاً مزعزعا واهى الأساس تنقصه جميع عوامل الثبات »[٢] .

ولـكن الثناء الذى يغدقه على إبراهيم هـذا الكاتب المصرى الممتاز ، لا يعجب المسيو أثنازى پوليتس Athanase Politis الدبلوماسى الإغريقى العظيم ،

(١) بوالـكنت تأليف دون ص ٤٩ من المقدمة .

(٢) صبرى فى كتابه السالف الذكر ص ٢٤٩ .

والمؤرخ الذى أخذت شهرته تطبق الآفاق . ذلك بأن المسيو بوليتس يرى أن إبراهيم قد جاوز حدود مقدرته ، وأظهر خطل رأيه حين أعطى للمسألة صبغة دولية ؛ وقد كان مستطاعا أن تبقى مسألة عثمانية داخلية محضة . وقد صدر المسيو بوليتس كتابه « النزاع بين تركيا ومصر من سنة ١٨٣٨ إلى سنة ١٨٤١ » بمقدمة قيمة ، تقع فى نحو مائة صفحة ، لخص فيها تاريخ مصر منذ أن جاءها محمد على إلى آخر حكمه تلخيصاً مقطوع النظير ، ومما جاء فيها :

« ولو بقى النزاع بين السلطان وتابعه القوى محصورا فى مسألة امتلاك الشام ، لبقيت له صبغته القومية المحضة . ذلك بأنه نزاع لا تتأثر به المصالح الكبرى لأية دولة من الدول ؛ ولهذا لم تكن إحداهن لتتدخل فيه ، لأنه نزاع داخلى مجرد من كل صبغة دولية .

« فلو أن محمداً عليًّا لم يتعد حدود الشام لكان من المحتمل جدا أن لا تتدخل الدول فى الأمر ، وأن يمنحه الباب العالى حق إدارتها عاجلاً أو آجلاً »[1] ؛ ويقول أيضاً :

« يعجبنا من إبراهيم جده وصدق عزيمته ، وهاتان صفتان من خير الصفات وألزمها فى إدارة الحروب ؛ ولكننا نظن أن الحكمة السياسية كانت تقضى عليه بأن يبذل كل جهده ليمنع تدخل الدول فى الأمر مهما كلفه ذلك . وليس ثمة شك فى أن زحفه على الآستانة كان لا بد أن يؤدى إلى هذه النتيجة »[2] .

وقصارى القول أن إبراهيم قد اشتهر ببطشه وشجاعته ، كما اشتهر محمد على بدهائه وسعة حيلته . لكن بوالكنت يفضل الدهاء وسعة الحيلة

(١) بوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ١٦ من المقدمة .
(٢) المصدر عينه ص ١٩ من المقدمة .

على الشجاعة وقوة البطش ، وقد كتب فى ذلك يقول :

« لو كان إبراهيم فى مكان محمد على لشككنا فى قدرته على إنجاز ما أنجزه أبوه ؛ ذلك بأن الله لم يهبه تلك العبقرية التى لابد منها لإنشاء الدول الكبيرة ، وإن وهبه الصفات اللازمة لتثبيت العروش وتقوية دعائمها »[١] وسنكتفى بهذا القدر فلا نزج بأنفسنا فى هذا الجدل طويلا .

ومهما تكن مقدرة إبراهيم أو عجزه فإنه كان يعرف كما يعرف غيره من الناس أن معاهدة كوتاهية ليست إلا هدنة لا أكثر ولا أقل . ولكنه مع هذا شرع يحكم بلاد الشام على أنها بلاد قد ضمت نهائيا إلى مصر ، لا على أنها بلاد محتلة ؛ يدل على ذلك ما كتبه نائب القنصل البريطانى فى يافا إلى القنصل العام فى ١٦ فبراير سنة ١٨٣٤ يقول : « إن موقف الحكومة من الأهالى هو موقف المحب لهم المشفق عليهم » ؛ والرسالة مكتوبة بالفرنسية ، وقد استعمل فيها هذين اللفظين doux et humain[٢] ، وكذلك كانت التقارير الفرنسية التى بعث بها بوالكنت تشتمل على هذا المعنى بعينه فهو يؤكد أن :

« إبراهيم عند ما دخل الشام أعلن فى كل مكان مبدأ الحرية والمساواة الدينية ، ونشر المنادين فى الطرقات يبلغون الناس أن العدل سيشملهم كلهم على السواء ، لا فرق بين دين ودين ، وأن من يظلم مسيحيا سيحل به من العقاب ما يحل بمن يظلم مسلماً »[٣] .

كذلك أبلغ بوالكنت وزارة الخارجية الفرنسية أن السياسة التى اتبعها إبراهيم هى أن يحكم البلاد عن طريق ولاة الأمور المحليين . وسنرجئ الكلام

(١) بوالكنت تأليف دون ص ٢٤٧ .
(٢) صور السجلات الرسمية الخ سنة ١٨٣٤ وثيقة رقم ١
(٣) بوالكنت تأليف دون ص ٢٠٥ .

على ما صادفته هذه الجهود من النجاح ، وحسبنا الآن أن نشير إلى قول مندوب وزارة الخارجية الفرنسية أنه مهما قيل عن قسوة القائد المصرى فى الأيام الخالية :

« فإن الحرب الأخيرة قد كشفت عن شىء جديد قلما يراه الناس فى جيش أوربى ، ويندر أن يوجد فى جيش إسلامى . وأقصد بهذا أنه كان يسيطر كل السيطرة على علاقة جيشه بالأهالى الملكيين ، ويحتم على جنده أن يدفعوا ثمن كل ما يأخذونه منهم فى مسيرهم »[1] .

وكان إبراهيم بطبيعته زارعا قبل كل شىء ؛ ولذلك كانت الزراعة محببة إليه ، وقد سعى إلى إدخال أنواع جديدة من النباتات فى بلاد الشام . وأما عن اختلاطه برجاله ، فقد سبق أن نقلنا ما يقوله الدكتور ياتس Dr. Yates فى ذلك المعنى ؛ ونزيد عليه هنا قول بوالكنت بصريح العبارة إنه كان يطبق على جنوده المبدأ الأوربى الذى يحرم على الضباط أن يعاقبوا رجالهم من تلقاء أنفسهم ، غير خاضعين فى ذلك إلى قانون . ولكن بوالكنت النبيل ابن النبيل لم يكن يستحسن كل الاستحسان مبادئ ابراهيم الدمقراطية لأنه يقول :

« وكان إبراهيم كثير الاختلاط برجاله ، يعيش معهم ويلعب معهم ويثنى على الأمة التى أنجبتهم ، حتى صاروا يحسبونه درعا يحتمون به من ضباطهم . وبلغ من أمرهم أنهم كانوا يرفضون تنفيذ أوامرهم ، ويقولون أنهم سيرفعون أمرهم إلى إبراهيم »[2] .

لكن هذا القول يكذبه تاريخ إبراهيم . فليس يستطيع إنسان أن يقود جنوده من نصر إلى نصر ، ويكتسح أعداءه أمامه كما اكتسحهم إبراهيم ، إذا

(١) المصدر عينه ص ٢٤٩ .

(٢) المصدر عينه ص ٢٣٩ .

لم يكن شديد الحرص على النظام . وإنما الذى أنطق بوالكنت بهذا القول هو أنه من آل بربون ، وأن دم آل بربون يجرى فى عروقه ؛ وقد اضطر إلى اعتزال الخدمة فى وزارة الخارجية الفرنسية ، لأنه أبى أن يعمل تحت سلطان الجمهورية الثانية ؛ وبلغ من أمره أنه كان يعارض فى رفع لوى فليب إلى العرش ، لأن طباع هذا الملك « الشعبية » لا تتفق مع ميوله الأتوقراطية[1] .

إن النجاح الذى لقيه إبراهيم فى قيادته سيبقى خالداً مدى الدهر[2] . أما ما قام به من الأعمال المدنية ، فنستطيع معرفته من وثيقة رسمية مؤرخة ١٥ أبريل سنة ١٨٣٤ عنوانها « مذكرات عن أحوال الشام التجارية والزراعية والسياسية ، مرفوعة إلى القنصلية البريطانية العامة » وهى وثيقة مطولة نقتبس منها ما يأتى :

لقد كان كبار الأتراك فى الشام فى العهد البائد يحتمون بحماية ذلك العهد ، ويسومون الأهالى ضروب العسف والإرهاق ؛ أما الآن فقد فقدوا جميع ما كانوا يتمتعون به من السلطة ؛ ولذلك تراهم يحقدون على إبراهيم باشا ، لأنه لا يسمح لهم أن يظلموا أهل البلاد ، ولأنه قد حرمهم فوق ذلك كثيراً من الامتيازات الظالمة التى كانوا يتمتعون بها من قبل .

« على أن الباشا مع ذلك قد رتب معاشاً لكل من حرم منصبه منهم » .

واختتم هذه المذكرات بهذا الوصف العام للحالة القائمة وقتئذ وهو :

« ويستدل من هذا على أنه لا يوجد الآن سبب للشكوى من حكومة

(١) المصدر عينه ص ٣٧ من المقدمة .

(٢) فى الأصل الإنجليزى « يمثله قول سرفنتيز » وقد راجعنا أقوال سرفنتيز كلها فوجدنا أكثرها انطباقاً على هذا المعنى قوله المأثور الذى أثبتناه هنا وهو وارد فى الجزء الثانى من دن كيشوت . وسرفنتيز Cervantes جندى وكاتب قصصى وروائى وشاعر خلد اسمه كتاب دن كيشوت المشهور . وقد اشترك فى موقعة ليبانتو البحرية الشهيرة التى هزمت فيها أوربا الأتراك وجرح فى هذه الموقعة .

الشام ، و إن كان يوجد من غير شك طائفتان من الناس لا ترضيان عن إبراهيم باشا : أولاهما تتكون من أولئك الذين كانوا فى عهد الباشا السابق يتمتعون بالمنصب أو السلطان ، وهم قليلون و يسكن معظمهم فى المدن الكبيرة ؛ والطائفة الأخرى قوامها الفئة المتعطلة المشاغبة ، و يوجد غالب أفرادها فى دمشق وحلب . وفيما عدا هاتين الطائفتين فمبلغ علمى أن الأهالى راضون بوجه عام .

« وقد أخذت الحكومة تفكر فى إنشاء الطرق الجديدة ، وفى خير الوسائل المؤدية إلى تسهيل سبل الاتصال فى بلاد الشام ؛ واستخدم الباشا بعض رجال التعدين من الإنجليز ، ليعرف هل فى البلاد مناجم للفحم أو المعادن الأخرى »[1].

وكتب رقيب آخر إلى القنصل البريطانى العام يقول :

« إن مصالح هذا القطر كلها هى موضع عناية حكومة إبراهيم باشا . ولقد جلست إليه أحدثه بضع ساعات ، فوجدته ممتعاً كأبيه بل أكثر منه ؛ وجدته صريحا نزيها حازما وأشد من أبيه رغبة فى العمل لخير هذا الشعب . ووجدت جنوده فى أحسن حال من النظام ، وتبلغ عدتهم ٢٥ ألفاً من المشاة ، وخمسة آلاف من الفرسان معهم اثنتا عشرة بطارية من مدافع الميدان ؛ والناس يهابونهم و إن كان سلوكهم طيبا بوجه عام »[2] .

وقد لا يكون من الفضول أن نضيف إلى هذا الوصف العام لحكومة إبراهيم شيئاً عن مظهره الخارجى فى ذلك الوقت . لقد قال بعض الكتاب إنه لم يكن يعنى بملبسه ولا بمظهره ، ولكن هذا القول لا يتفق مع ما كتبه عنه بوالكنت . فقد قال إن أسنان إبراهيم كانت على درجة كبيرة من الجمال . و إذا عنى موظف

(١) صور السجلات الخ سنة ١٨٣٤ وثيقة رقم ٢٦ .

(٢) المصدر عينه الوثيقة رقم ٢٤ .

دبلوماسى فرنسى فى سنة ١٨٣٤ بإثبات هذه الصفة فى تقرير رسمى ، ولم يقل شيئاً عن ملبس إبراهيم ، فإنه لا يفهم من قوله أنه يؤكد جمال أسنانه فحسب ، بل أنه يقول للقارئ إن هيئته لم يكن يبدو عليها شىء من الشذوذ . وليس أدل على أن بوالكنت كان قوى الملاحظة من قوله : « إن إبراهيم كان قصير الذراعين جدا »[١] .

وقد يكون مما يلذ للقارئ معرفته فى هذا القرن العشرين ، الذى تقف فيه البنات موقف الرقيبات على الكتب التى يسمح بقراءتها لأمهاتهن ، والذى محيت فيه كلمة « الاحترام » من قاموس الشبان ، نقول قد يكون مما يلذ للقارئ معرفته أن إبراهيم كان شديد التأدب فى حضرة أبيه ؛ لا يسمح لنفسه بأن يضطجع أمامه ولا يفكر فى التدخين فى مجلسه[٢] . ويؤكد بوالكنت أن أهل الأناضول كانوا على بكرة أبيهم يحبون أن يروا هذا الابن البار يجلس على سرير الملك فى الآستانة . وكان إبراهيم يعرف ذلك منهم ، ولكنه لم يكن يعير حركتهم أقل اهتمام . وكل الذى كان يريد أن يجنيه من حبهم له ، أن يزيده قدرة على خدمة أبيه . ومن أقواله المأثورة « إن الإرادة التى تحكم فى القاهرة يجب أن تحكم أيضاً فى الآستانة »[٣] .

وبينما كان إبراهيم يجاهد فى إحلال النظام محل الفوضى والاضطراب ، كان الروس يكيدون له . وقد بدءوا كيدهم ولما يجف المداد الذى كتبت به معاهدة كوتاهية . وليس أدل على ذلك من أن السفير البريطانى فى الآستانة اضطر إلى إرسال مذكرة شخصية إلى الكولونل كامبل ، يصف فيها الحال التى نشأت من

(١) دون فى كتابه « بوالكنت » ص ٢٤٤ .
(٢) المصدر عينه ص ٢٤٧ .
(٣) المصدر عينه ص ٢٩٢ .

هذا الغدر . وقد كتب على هذا الخطاب كلمة « خاص » وهو بخط لورد پنسنبى Lord Pansonby نفسه ، ويشمل سبع صحائف من أوراق المذكرات ؛ ويستطيع الإنسان أن يتبين أهميته من كلمة « خاص » المكتوبة عليه ، ومن هذه الجملة التى جاءت فى أوله :

« سأبلغك أمراً ، ولكننى أرجوك ، وألح عليك فى الرجاء ، أن تكون فيما يتطلبه منك من العمل حذراً غاية الحذر ، نافذ البصيرة ما أمكنك ، وأن تذكر أولاً أن ما أخبرك به قد يكون خاطئاً ، وأن لا يعزب عنك ثانياً أنه إذا كان صواباً ، فإن من أوجب الواجبات عليك أن لا تسلك فى عملك طريقاً يدنى أعداءنا من مقصدهم » .

وبعد أن أيقظ بهذه الطريقة فى القنصل العام رغبته الشديدة فى معرفة ما سيقصه عليه قال :

« إن الذى أقصه عليك هو أن لدى من الأسباب ما يحملنى على الظن بأن الروس يحرضون السلطان أو يشجعونه على التفكير فى مهاجمة محمد على ، كما أخبرتك من قبل . ولا يخفى عليك أن السلطان عاجز كل العجز عن مهاجمة محمد على ، إلا إذا جاءه العون من قبل الروسيا ؛ ولذلك لا يبعد أن تكون الخطة التى رسمتها بطرسبرج ، هى أن تحرض السلطان على مهاجمته فى هذا الوقت ، لأن شروط المعاهدة الجديدة تخول للروسيين أن يساعدوه على جميع أعدائه »[1] .

---

(١) صور السجلات الخ سنة ١٨٣٣ الوثيقة رقم ٩٨ .